بحوث جامعية

مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية بصفاقس

العدد 1 لسنة 2001

بحوث جامعية — مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية بصفاقس — العدد 1 لسنة 2001

"Buḥūṯ Jāmiᶜiyya"

Recherches Scientifiques

Academic Research

Revue de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Sfax
Journal of the Faculty of Letters and Humanities, Sfax

Numéro 1 - 2001
Number 1 - 2001

بحوث جامعيـــــة

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

العدد الأول – جانفي 2001

مجلة بحوث جامعية

الإدارة والتحـــــــرير

العنوان : طريق المطار كلم 4.5 – 3029 صفاقس

العنوان البريدي : ص.ب. 553 3000 صفاقس

الهاتف : 557 670 (04) 216 – 558 670 (04) 216

الفاكس : 540 670 (04) 216

البريد الإلكتروني : MedAli.Halouani@ Flsh.rnu.tn

المدير المسؤول : **محمد رجب الباردي**

رئيس التحريـــر : **صالح الكشـــــو**

نائب رئيس التحرير : **محسن ذيـــــاب**

هيئة التحرير :

- **محمد علي الحلـــواني**
- **محمد رجب البـــاردي**
- **نور الدين الكـــــراي**
- **محمد الطاهر المنصوري**
- **محمد العزيز نجاحـــي**
- **محمد صالح المراكشي**
- **محمد صالح الكشـــو**
- **منيـــر التريكـــــي**
- **محســـن ذيـــــاب**
- **لسعـــد الجموســـي**

سعر الاشتراك السنوي :

تونس وأقطار المغرب العربي : 6 د.ت + 2 د.ت (معلوم البريد) = 8 دينارا تونسيا

الأقطار الأخرى : 10 دولارا أمريكيا + 5 دولارا (معلوم البريد) = 15 دولارا أمريكيا

ترسل قيمة الاشتراك بحوالة بريدية أو بصك بنكي باسم مقتصد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس – الحساب الجاري بالبريد 294823 مع ذكر عبارة **"اشتراك في مجلة بحوث جامعية "**.

مذكرة للناشرين في المجلة

* "**بحوث جامعية**" مجلة محكمة تصدر كل 6 أشهر في مجال الآداب والعلوم الإنسانية
* لايزيد عدد صفحات البحث الواحد فيها عن 25 صفحة مرقونة.
* ترقن البحوث فيها بتلخيص في اللغات الثلاث التالية : العربية والفرنسية والانجليزية.
* المواصفات المادية للبحوث ينبغي أن تكون وفق نظام "وورد" Word (مع الإسطوانة الحاملة لاسم صاحب البحث).
* ينبغي أن تكون الإبانات كالخرائط والرسوم والصور في شكلها وحجمها النهائيين.
* يفرد باب قار للقراءات (على ألا تتجاوز القراءة الواحدة 5 صفحات مرقونة).
* تلتزم هيئة تحرير المجلة بإعلام المساهمين بقبول بحوثهم لمراجعتها حال تسلمها تحكيما إيجابيا ولاتعاد إليهم في حال عدم نشرها.
* الآراء المنشورة لاتلتزم إلا أصحابها.
* المساهمة في المجلة مجانية. ويحصل أصحاب المقالات المنشورة على 3 نسخ من المجلة.

هيئة التحريـــــــــر

النص المعلن / النص المنجز
في
شعر جميل صدقي الزهاوي

حاتم عبيد*

يعتبر جميل صدقي الزهاوي (1863 - 1936) ثاني اثنين من شعراء العراق في مطلع هذا القرن بهما ارتبط تاريخ الشعر في تلك الربوع وعلى يديهما شهد الشعر هناك بدايات نقلاته وطلائع تحولاته قبل أن تتبدل قسماته وتتفرع اتجاهاته وتتغير رياحه سنة 1949 التي يؤرخ بها فريق من الدارسين لظهور حركة الشعر الحديث في البلاد العربية .

فقد اقترن اسم الزهاوي بمعروف الرصافي (1875 - 1945) اقتران الشعر بهما -في تلك الحقب- ببغداد . وكان أن نشأت بين الرجلين - على غرار ما ينشأ بين أفذاذ الشعراء وأرباب الصنائع والتجار - خصومات تدور على زعامة الشعر وإمارته لم تخل أحيانا من تجريح بالقول وتعنيف باللفظ " كان يؤججها أنصارهما بنقولاتهم ووشاياتهم ومقالاتهم حتى حل الجفاء بينهما محل الوئام وثارت في بغداد معارك أدبية طريفة في الصالونات والمقاهي [1] لم يستطع أهل الإحسان من أصدقاء الشاعرين الذين حملتهم الرغبة في إصلاح ذات البين والتأليف بين القلوب أن يضعوا حدا لها .

ولئن استطاع الرصافي أن يعطف القلوب على شعره ويحظى بإجماع النقاد على شاعريته ويفوز منهم بالعناية والدرس والاستحسان[2] فإن حظ الزهاوي كان دون ذلك فالإجماع على جودة شعره غير متحقق والإقرار بشاعريته غير ثابت على ما حظي به هو الآخر من دراسات غير قليلة[3]، فلقد كانت مواطن الاهتمام التي وقف الدارسون عندها - أثناء تناولهم شعر الزهاوي بالدرس -كثيرة منها ما خص مزاجه وسلوكه ومنها ما اتصل بدينه ونحلته ومنها ما كان دائرا على رحلاته وأسفاره والبقاع التي نزل بها وأقام فيها - بدعوة من أهلها- ردحا من الزمن ، والذين ربطته بهم صلات أثناء تلك الرحلات وقال فيهم شعرا ، ومنها ما مس وطنيته ومواقفه

---

* **حاتم عبيد : مساعد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس.**

[1] نجدة فتحي صفوة : " معروف الرصافي " رياض الريس للكتب والنشر ، لندن **1988** ص.**43** .

[2] انظر قائمة الكتب والدراسات والمقالات المخصصة للرصافي ضمن المرجع السابق ص ص.107 -111.

[3] انظر أنيس المقدسي : " أعلام الجيل الأول من شعراء العربية في القرن العشرين " مؤسسة نوفل ، ط.**2** ، لبنان **1980** ، ففي ذيل هذا الكتاب وتحديدا ص ص . **492- 493** ذكر لما يناهز العشرين عنوانا تناولت الزهاوي بالدرس سواء في شكل كتب تعقد له أو دراسات تعرض لشعره أو مقالات تقف عنده .

السياسية تجاه أنظمة الحكم الثلاثة التي حكمت العراق على عهده فأدركها وتقلد في ظلها جملة من الخطط والوظائف ناله بسببها خير كثير وأصابه من جرائها – في بعض الأحيان – طرد وسوء منقلب، ومن تلك القضايا ما تعلق بمسألة الجودة والرداءة ومشكلة الجدة والقدامة في شعره[4] .

وانضاف إلى كثرة القضايا المطروحة تباين الآراء في ذلك الرجل وشعره إلى حد يعسر فيه على المتتبع لما كتب حولهما أن يظفر بما من شأنه أن يعينه على رسم صورة واضحة تصدق على الرجل صدقها على شعره . فقد كان اختلاف الدارسين في شأنه كبيرا وافتراقهم في شعره بينا حتى لا يكاد يجمع بينهم – سواء ممن جايله أو ممن جاء بعده – رأي أو وجهة نظر فالزهاوي على كثرة شعره لم يفز بإجماع النقاد ولم يتقبل شعره من لدن الجميع بالاستحسان وإنما " آراء النقاد متباينة في الحكم على شعره بعضهم يرفعه إلى درجة أبي العلاء المعري فيجاري إسماعيل أدهم إذ يقول " لقد شارك الزهاوي فيلسوف المعرة عرشه في الجلوس على قمة الشعر الفلسفي وبعضهم كأحمد حسن الزيات يصفه بشاعر الفكرة ذي البصيرة الناقدة والفطنة النافذة ولكنه لا يرى في شعره تلك الموسيقى الفنية العالية . "[5] بل إن الحيرة والارتباك ليجريان على لسان الناقد الواحد مما يضطره أحيانا إلى الجمع بين أعناق المتنافرات فتتجاور في كلامه عبارات ترفع من قامة الشاعر وتلحقه بالأفذاذ من السابقين وأخرى تطعن في شعرية شعره وتنبه إلى ما فيه من سطحية وابتذال . يقول أدونيس مخللا قوله باستدراك يفضح ما كنا منه بسبيل " يمكن أن نعد الزهاوي على الرغم مما في شعره من سطحية حينا وابتذال حينا ظاهرة مهمة بين كوكبة الشعراء العرب وفي طليعتهم المعري "[6] وأمام هذا الاختلاف البائن بين الدارسين الذي نبه إليه المقدسي في قوله المذكور وذكر به في موضع آخر قائلا : " بأن المطالع هناك [يعني كتاب هلال ناجي] سيرى من تباين الآراء ما يوقفه موقف الحائر لا يدري أيحكم له أم عليه ."[7] آثر الباحث – تبديدا لهذه الحيرة ووضع حد لهذا الاختلاف – ترك ما أورده الدارسون جانبا ونبذ ما أبدوه من ملاحظات – على ما لها من أهمية أحيانا – ظهريا ودعا إلى التوجه إلى شعر الزهاوي واعتماده مصدرا أساسيا للدرس متى أراد الباحث أن يقيم دراسته على أسس مكينة تعصمه من الوقوع في المغالاة وسوء التقدير " فلا بد لنا إذن –والكلام للمقدسي– لدراسته دراسة أصيلة من الرجوع إلى المصدر الأصلي

---

[4] يمكن النظر في مقدمة عبد الرزاق الهلالي التي صدر بها ديوان الزهاوي والتي طاف فيها بكل هذه القضايا المذكورة . انظر ديوان جميل صدقي الزهاوي ، دار العودة بيروت ، ط.**2** ، **1972** .

[5] أنيس المقدسي : " أعلام الجيل الأول " ص. **240** .

[6] ديوان النهضة : جميل صدقي الزهاوي ، دار العلم للملايين لبنان **1983** ، ص.**11** .

[7] المرجع السابق ، ص.**241** .

وهو ما نشر له من شعر في شتى دواوينه "[8] ولا بد لنا – والكلام لسعيد السريحي في سياق آخر غير هذا السياق وإن كان منه بسبيل – أن نحدد مهمة النقد على الوجه الصحيح وأن نقوم " بمساءلة النقد عما إذا كان قد قام بواجبه تجاه هذه التجارب وكشف عما هو شعري فيها وما هو غير شعري وعما إذا كان هذا النقد أمينا في قيامه بما أوكل إليه ولم يتحول إلى نقد تبريري أو نقد مهادن للتجربة ويغض الطرف عما يمكن أن يكون خطرا على التجربة نفسها [فـ]النقد مطالب اليوم أكثر من أي وقت مضى بالانشغال بسؤال أساسي وجوهري يبحث فيما يمكن أن يجعل من الشعر شعرا ثم يضع ما أنجز بالأمس وما ينجز اليوم وما يمكن أن ينجز غدا على محك هذا السؤال "[9].

ولا شك أن دعوة المقدسي – وإن كنا لا نرتاب في صدقها وفيما تضمره من توجه صحيح في قراءة الشعر وفهمه – يجب على الآخذ بها أن يفرق – أثناء عودته إلى شعر الزهاوي ومقدمات دواوينه – بين لونين من النصوص ومستويين من مستويات الخطاب يبدو أن أغلب الذين عطفوا على شعره بالسؤال لم يكونوا على بينة منهما مما جرهم في كثير من الأحيان إلى إصدار جملة من الأحكام لم تخل من مبالغة وإسراف ولم تعر من خطإ وسوء تقدير ونعني بذينك النصين **النص المعلن والنص المنجز** . أما المعلن فمداره تلك القصائد من شعره التي بشر فيها بالجديد وادعى الريادة والسبق والإحداث وظهر في مظهر المستدركين والفاتحين لمحجات جديدة في القول الشعري فكانت تلك القصائد من قبيل حديث الشعر عن الشعر أو البيان الشعري الذي قد يصل فيه ادعاء الزهاوي أحيانا درجة تدفع به إلى أن يعلن – دون مواربة أو مداورة– أنه باذر بذور التجديد في الشعر العربي كما يظهر في قوله :

قد غرست التجديد في الشعر حتى ••• كاد لولا الجمود يثمر غرسي
أنا إما حضرت فالقوم خرس ••• وإذا لم أحضر فهم غير خرس

ومثلما نلفي الزهاوي يعلن أنه باذر بذور التجديد نصادفه أيضا يعلن في أبيات أخرى – بنبرة المباهاة والزهو نفسها – أنه رائد التبسيط في الشعر إليه يرجع الفضل في الجهر بضرورة تيسير العبارة الشعرية واستعمال ما كان منها واضحا سهلا مواكبا للعصر مستعملا في هذه الأبيات فعل " أعلن " مسندا إياه إليه بما يؤكد وجاهة التسمية التي رصدناها لهذا القبيل من النصوص عندما نعتناها بـ " النص المعلن ". يقول الزهاوي :

لم يكن مبدأ البساطة في الشعر معلنا
أنا من بعد أعصر ••• أنا **أعلنته** أنا

---

[8] المرجع السابق ، ص. **241** .
[9] " المسافة بين المتن والهامش " ، علامات في النقد ، المجلد 7 ، ج.**28** ، **1998** ، ص ص **251 – 252**

ويمكن أن نظفر بالنص المعلن وأصدائه في قسم أخر من النصوص غير قليل يـــتهجم فيه الزهاوي على القديم ويوجه له نقدا عنيفا ويجهر بضيقه به وتبرمه منه وإعراضـــه عـــنه ورفضه إياه ليقبل في المقابل – إقبال المبهور – على كل طارف وجديد.

ومن أقواله الشعرية في هذا السياق وهي كثيرة :

سئمت كل قـــديـــم ••• عرفته في حيـــاتي

إن كان عندك شيء ••• من الجديد فهـــات

وتوجـــد طائفة أخرى من النصوص الشعرية يتسنى من خلالها الوقوف على حضور للنص المعلن ونعني بذلك تلك القصائد التي حرص فيها الزهاوي على أن يقدم لقـــارئ شـــعره لوحة قاتمة عن وضع الشعر في العراق عامة وعما آل إليه شعره في تلـــك البلاد على وجه أخص فإذا بالناس – نقادا وقراء – يمقتون شعره ويصدون عنه لفرادته ونبوغ قائله وتبريزه فيه وإذا بالشعر – في تلك الربوع – غريب غربة قائليه الذيـــن ضـــلوا طريقهم فلم يدركوا من الشعر الجوهر والحقيقة لذلك فالزهاوي يندب ضياعهم وينعى على الشعر كساده وعدم نفاقه وشياعه قائلا :

الشعر في بغداد ليس برائج ••• يا ضيعة الشعراء في بغداد

وما كان الزهاوي ليمضي في إخراج تلك الصورة –صورة الشعر– على ذلك النحو وبتلك القتامة إلا ليزيد في إشعار قارئه بجلالة الدور الذي اضطلع به حين ساء وضع الشـــعر وتردت منـــزلته والمتمثل في بعث هذا " الكائن " من مرقده والنهوض به بعد عثرته وإنعاشه إثر صرعته وهذا ما يسفر عنه قوله :

جمد الشعر في النهاية حتى ••• قلت يقضي عليه هذا الجمـــود

ثم إني بعثته بعد أن كـــــاد صـــريعا بالنفس مـــنه يجـــود

وقـــد يـــتجلى الـــنص المعلن في لون من القصائد يدور فيها الكلام على نفسه ويشـــيد الشاعر بشعره ويذكر بفضله مقللا في المقابل من منـــزلة أشعار غيره نازعا عـــنها كـــل قيمة حتى لكأن الإحسان في قول الشعر مقصور عليه والجودة لاصقة بشعره حالة فيه لا تتعداه إلى أشعار غيره . يقول الزهاوي مباهيا بشعره مثنيا عليه:

وكم درر لي في القريض نظمتها ••• فكانت بجيد الدهر مثل عقود

وكم حكمة فيها بلاغ أذعـــتها ••• بقافـــــية ملء البلاد شـــرود

ويقول في أخرى معرضا بغيره من الشعراء مشككا في كفايتهم نائلا من شعرهم :

ما الشعر إلا شعور المرء يعرضه ••• على الأنام بلفظ غير ذي عكر

جم لعمري الألى قد قرضـــــوا ••• وليس من برزوا فيه سوى نفر

لقد تعاطاه ناس لا ابتكار لهـــم ••• والكل قد ضربوا منه على وتر

أما إذا قابل الناس شعر الزهاوي بعدم الرضا والاستحسان ولم يعلوا من كعبه ولـــم يعترفوا لصاحبه بالفذاذة والتبريز فإن ذلك لا يعود –في نظر الزهاوي– إلى أن شعره تداخله عيوب وتتخونه عاهات تمنعه من أن يجري فصيحا مستقيما آخذا بأسباب الجودة وإنما العيب عيب الجمهور الذي لم يعرف الشعر والخطأ خطأ النقد الجائر الذي مازال يحكم – أثناء تناول شعر الزهاوي – مقاييس قديمة وينظر إليه بعين بالية. وهذا ما يجسده قوله :

هنالك ناس يمقتون قصائدي ... وتمقتهم طرا كذلك قصيدي
يذمون شعرا لا يقلد غـيره ... أولئك أعـــداء لكل جديد
لقد قتلوا الشعر الجميل بباطل ... فيا شعر أنت اليوم جد شهيد

وقوله :

نقدت قريضي ثلـــة بياض لا تعرف الأدب اللبـابـــــا
فرفعت مذودتي أذب بـــــــها عن الأدب الذبـــابـــــا

وفيه إزراء وتعريض بأولائك الذين انتقدوا شعر الزهاوي على غير حق ودون معرفة بأصول الصنعة أو امتلاك لذائقة تمكن من تمييز جيد الشعر من رديـئه فهؤلاء أقبلوا علـــى شـــعره ينقدونه إقبال المتطفل لذلك فإنهم ظلوا كالذباب يحومون حوله دون أن يدركوا منه الجوهر واللباب فكان لا بد للزهاوي من التشهير بهم والرد عليهم وطردهم من حومة الأدب والذب عنها.

وقوله أيضا الوارد في قالب سؤال موجه إلى شعره :

مالي أراك على الإجادة في الذي ... توحيه منسيا من الجمهور
أ فأنت في بلد أضـــــاعك أهله ... أم أنت بالإقبال غير جدير[10]

وهي أبيات لا يغيب عن الناظر فيها أن يعقد الصلة بين صورة الزهاوي وما لقـــيه شعره من الناس من غبن وسوء فهم وعدم إقبال وصورة النبي وما عرفه وحيه من أهله من صد وإعراض كمالا يفوت القارئ أن يستحضر –وهو يقرأ البيت الثاني– صورة أبي الطيب الغريب غربة النبي صالح بين أهله بسبب نبوغه ونبوة شعره .

ويمكـــن لـــنا أيضـــا أن ندخل في دائرة النص المعلن ما قدم به الزهاوي لشعره من مقدمـــات نظـــرية جاءت نثرا وفيها يقر بكونه قد نهج في قول الشعر نهج المجددين فكـــان ســـابق أهله ونسيج وحده إيمانا منه بأن الشعر " أشبه بالأحياء في اتباعه سنة النشـــوء والارتقاء يتجدد – وأحرى به أن يتجدد – بحسب الزمان ويرقى من الأدنى إلى الأعلى ومن البسيط إلى المركب "[11] وغير خاف ما في هذا القول من آثار نظرية

---

[10] وهذا قريب من قوله وهو من رباعياته :
أنا يا شعـر كئيب مثلما أنت كئيب
وكـلانا أيها الشـــعر ببغداد غريب

[11] من مقدمة ديوانه الموسومة بـ " نزعتي في الشعر " ، ديوان جميل صدقي الزهاوي ، ص.3 .

النشوء والارتقاء التي اعتنقها الزهاوي وأعجب بها وروج لها في شعره[12] وعرف بها في بعض مؤلفاته " الفلسفية "[13] أما الشاعر الحق عنده فهو " شجاع لا يهاب في الصدق لومة اللائمين (...) نزاع إلى التجدد يثور على النظام ويتمرد على السلطان الكاذب "[14] ليخلص إلى القول في لهجة إنشادية لا تخلو من اندفاع وحماس " الجديد ، الجديد هو أحسن ما تنزع إليه النفس الوثابة ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما الناظر ."[15] ومن المواقف " التجديدية " التي تحمس لها الزهاوي موقف أعلن عنه في محاضرة من محاضراته واتصل بركن من أركان القصيدة العمودية اعتبره بمثابة السلاسل والأغلال التي تكبح حرية الشاعر وتعطل جريان الكلام لديه وتتسبب في تقليص مسالك القول ومنافذ الإبداع ونعني بذلك وحدة القافية . فقد دعا الزهاوي في محاضرته تلك إلى نبذ هذا القيد وادعى – على عادته – أن له فضل السبق والمبادرة في تلك الدعوة وله الفضل أيضا في إنجازها وهذا ما عبر عنه قوله : " إني لا أصر على التزام القافية بل أنا أول من نبذها ظهريا وقال بقطع هذه السلاسل والأغلال وتحرير الشعر منها ."[16] وهذا ما أفضى به في المحاضرة نفسها إلى أن يدعو الشعراء إلى لون جديد من الشعر سمته الإرسال وفيه يجري الشاعر قصيدته على بحر واحد فيلتزم بوحدة الوزن ليكون – في المقابل – في حل من القافية الموحدة رفعا للكلفة عن الشعراء وتيسيرا لهم ودفعا لما يمكن أن يتسبب فيه البحث عن القوافي المتماثلة من مشقة وعناء " فأسهل الشعر ما كان مرسلا ليس عليه من الروي قيد قد يثقل رجليه فلا يمشي مطلقا ."[17]

ولا شك أن الذي يقرأ هذا الكلام ستعروه دهشة قد تدفع به إلى مراجعة ما قيل عن بدايات الشعر الحر وعن النصوص التي يؤرخ بها ، بله إلى التفكير في إحلال الزهاوي محل الرائد إنصافا له واعترافا بفضله ولكنه متى نظر في المنجز من شعره – وهذا هو النوع الثاني من نصوصه – وبحث عن أصداء تلك الدعوة وعن تجليات النص المعلن لم يظفر بطائل ولم يجد ما به يستشهد على مظاهر التجديد التي كنا بصدد التوقف عندها . ولعل خلو الديوان من هذا الشعر المرسل هو الذي حمل مقدمه عبد الرزاق الهلالي على القول بعد أن عرض إلى دعوة الزهاوي إلى إرسال الشعر "

---

[12] انظر على سبيل المثال قصيدته " سليل القرد " التي مطلعها :
عاش في الغاب القرد دهرا طويلا قبل أن يلقى للرقي سبيلا

[13] للزهاوي كتاب ضمنه جملة آرائه الفكرية والفلسفية ووسمه بـ " المجمل مما أرى" ونشره سنة **1924**. انظر عبد الحميد الرشودي : " الزهاوي دراسات ونصوص " منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت **1966** ، ص ص. **168 – 169** وفي هذين الصفحتين تعريف بمحتوى هذا الكتاب .

[14] " نزعتي في الشعر " ص. **4** .

[15] المصدر نفسه ، ص. **4** .

[16] نقلا عن مقدمة عبد الرزاق الهلالي للديوان . انظر الفقرة الموسومة بـ " رأيه في القافية " .

[17] ديوان الزهاوي ، ص. ن ن

ولعـــل القـــارئ يقـــف على عدد من القصائد التي نظمها بطريقة الشعر المرسل في دواويـــنه !"[18] فاكـــتفى بهذا القول وأشعرنا عندما صدر كلامه بالناسخ " لعل " وأنهاه بـــنقطة تعجب بأنه يشك في توفر هذا اللون من الشعر لدى الزهاوي وهذا ما يفسر عـــدم إردافـــه هذا القول– على خلاف مألوفه – بجملة من الشواهد يقتطعها من شعر الزهاوي ليطلع القارئ عليها ، فلو كانت الشواهد متوفرة لما ضن بها المقدم علينا . ولـــم تسعف الشواهد أدونيس هو الآخر عندما أشار إلى ما في شعر الزهاوي من جدة وخروج عن أركان الشعر المألوفة فاكتفى بالذكر والإشارة إليها دون أن يظفر بالشاهد والدلـــيل الشـــعري يشـــفع به كلامه الذي سنورده أو يلحقه بقسم المختارات من شعر الـــزهاوي . يقـــول أدونـــيس مســـترفدا في قوله عبارات ذكرها الزهاوي في بعض محاضراته الدائرة على الشعر : " تتمثل الجدة عند الزهاوي في الخروج علىالمألوف القـــاعدي فـــي الكـــتابة الشعرية : الخروج على القافية الواحدة في القصيدة وممارسة القافـــية المتعددة إذ ما ضر سامعها لو اختلفت قوافيها القصيد " والخروج على الوزن إذ لا ضـــرورة في أن يلتزم " والشعر لا وزن ولا قافية تلتزم " إنه الخروج إذن على جمـــيع القيود التي تحد الشعر " فالشعر ليس له حدود " يقول الزهاوي "[19]. ولو كانت الجدة متحققة في المنجز الشعري لما اضطر أدونيس إلى القول بعد صفحات ناقضا ما كـــان أبرمه من رأي " صحيح أنه تبنى فكريا اتجاها متقدما سواء على صعيد العلم أو صعيد العادات والمعتقدات الفكرية والدينية في الماضي أي أنه بعبارة ثانية كان جديدا في مضمونه لكن من الصحيح أيضا أنه ظل قديما في شكله[20]. فنسب أدونيس الجدة في شعر الزهاوي إلى المضمون وجرد الشكل منها وفصل بين المقومين المتلازمين نعني الشكل والمضمون فصلا لا نخال أن فعل الكتابة وقول الشعر يقرانه ويقبلانه .

ولا شـــك أن الباحـــث متى سلم بصحة تلك النصوص المعلنة وصادق قائلها علـــيها واكتفى بها شاهدا في الحكم على شعر الزهاوي – وهذا ما حدث في كثير من الدراســـات – سينتهي إلى القول بأن الزهاوي شاعر مجدد ونفس التغيير في شعره باد واســـتدراكاته علـــى القصـــيدة القديمة غير خافية دون أن يدرك المسافة الفاصلة بين الإعـــلان والإنجـــاز والنية والعمل . فغير كاف أن يدعي شاعر – سواء فيما يدلي به مـــن أقـــوال أو ما يكتبه من دراسات أو ما يقول من أشعار – التجديد والثورة على القديم والتغيير في مسالك القول حتى يسلم الدارس بدعواه إسلاما لا يأتيه شك ويدخله فـــي زمـــرة المجددين إذ النية والتصريح وجدهما لا يكفيان لميلاد الشعر الجديد وإنما الإعـــلان ينبغي أن يعقبه إنجاز والتبشير بالجدة يجب أن يولد نصوصا جديدة بالفعل "

---

[18] المرجع السابق ، ص.ص. ن.ن.

[19] ديوان النهضة : جميل صدقي الزهاوي ، دار العلم للملايين لبنان **1983** ، ص.**7** .

[20] المرجع السابق ، ص.**12** .

فمن حق الشاعر أن يكون على أتم الوعي بمشروعه وأن يرسم لكتابته طريقا يعتقد أنهـا تحقـق لها الجدة والطرافة والقدرة على ملابسة العصر لكن بشرط أن ينتج ذلك الوعي فنا لا وعدا بفن "[21] وهذا تحفظ يصدق على غير الزهاوي من الشعراء صدقه علـيه وهـو الذي " لا يرى أحدا يفضله في صناعة القريض وإذا ارتأى الناس أحدا يدانـيه في ذلك أو يوازيه كان خصمه وغدا همه أن يغض من منـزلته "[22] لذلك فإن الذيـن انسـاقوا وراء " إعلانات الزهاوي " وسلموا بدعاويه لم يجدوا ما به يوثقون صـدق تلـك الدعاوى ولم تسعفهم الشواهد على صحة هاتيك الإعلانات إلا نصوص الإعلان نفسها !

ومـثلما اخـتلط في أذهان الكثيرين ممن تناول شعر الزهاوي بالدرس النص المعلن بالنص المنجز امتزج في أذهانهم أيضا الفكر الجديد بالشعر الجديد وإصلاح المجتمع بإصلاح القصيد . والذي زين لأولئك الدارسين إحداث المطابقة بين الوجهين الـزهاوي نفسـه عـندما صرف قسما كبيرا من أشعاره إلى عرض الأفكار الجديدة والفلسـفات الوافدة الدائرة على تحرير المرأة والمجتمع والتي تجيب عن أسئلة أصل الخلـق وبدايـة الكـون[23] وهي أفكار حصلها الزهاوي من رحلاته وقراءاته ومضى يبسطها ويروج لها في قصائده .

ولئن سلم الدارسون للزهاوي بالتجديد في تلك النصوص التي 'نبرى فيها معلنا التجديد فلم يسجلوا عليه اعتراضا فإنهم حينما وقفوا على قصائده التي ضمنها أفكاره الجديدة وفلسفته الجريئة لم يفتهم أن ينبهوا – رغم أنهم عدوا تلك القصائد من التجديد واعتبروها أمارة إحداث في الشعر – إلى ما تركته تلك الأفكار والمعارف في شعره من سيئ الآثار حتى ألفينا أكثر من دارس يتردد وتدخل عليه الحيرة وهو يبحث عن الصفة التي يسندها إلى الزهاوي لضربه في أكثر من مجال بسهم ولعدم أخذه بمقولة التخصـص "فالزهاوي كما يعرفه أبناء زمانه شغل الرأي العام وتضاربت الآراء فيه فمـن قائل إنه فيلسوف ومن مدع إنه ليس شاعرا بل فيلسوف فغالى بعضهم فذهبوا إلـى أنـه لاذ بالشعر ليبلغ غاية في نفسه هي الفلسفة . "[24] ووجدنا من يقدم – أثناء حديـثه عـن الزهاوي – جانب الفيلسوف والمفكر على جانب الشاعر فيه وهذا شأن العقـاد عندما عرج على تردد الزهاوي بين الشعر والفلسفة فتساءل " هل الزهاوي

---

[21] حمادي صمود : " قراءة نص شعري من ديوان أغاني مهيار الدمشقي لأدونيس " ضمن " صناعة المعنى وتأويل النص " منشورات كلية الآداب بمنوبة ، تونس **1992** ، ص. **374** .

[22] كمال إبراهيم : " ذكريات مع الزهاوي " ضمن كتاب " الزهاوي دراسات ونصوص مختارة " ص.375 .

[23] انظر قصائده : "سياحة العقل "، " الدفع عوض الجذب "، القوة والمادة "، " سليل القرد " والقصائد الدائرة على تحرير المرأة وهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال : " النساء"، " ضلوا وأضلوا "، "يا ابنة يعرب"، وانظر أيضا "رسالة الدفع العام والظواهر الطبيعية والفلكية" ورسالة "المرأة والدفاع عنها" ضمن كتاب عبد الحميد الرشودي المذكور.

[24] ناصر الحاني : " فن الشعر عند الزهاوي " ضمن كتاب الرشودي المذكور، ص ص. **391 – 392** .

شـــاعر أو عالم أو فيلسوف . "[25] وانتهى إلى تغليب صفتي العلم والفلسفة قائلا بعبارة واضـــحة لا تحتمل تأويلا : " أما أنا فرأيي فيه أنه صاحب ملكة علمية تطرق الفلسفة وتـــنظم الشـــعر بأداة العلم ووسائل العلماء . "[26] وهذا رأي يلتقي فيه العقاد بما أبداه ســـامي الكيالي عندما عد الزهاوي من أصحاب الأفكار ورأى في ذلك إنصافا للرجل ووفـــاء لفكـــره حيـــث قال : " ومن الحق أن نطلق على شاعرنا الكبير لقب الزهاوي المفكـــر أو الـــزهاوي المصلح من أن ندعوه الزهاوي الشاعر فقد كان رحمه الله إلى فلسفة الإصلاح والتجديد أميل وإن عاش كل حياته شاعرا (...) وأغلب الظن أنه اتخذ الشـــعر وسيلة حية لبسط آرائه الاجتماعية ونزعاته التجديدية . "[27] ولئن لم تساور أدونـــيس الشـــكوك في مدى صحة نسب الزهاوي إلى زمرة الشعراء فبقي محتفظا له بلقب الشاعر معترفا لشعره بكبير الفضل وعظيم الدور فإن دعوته الدارسين في أكثر مـــن مـــرة – إلـــى اطراح المعيار الشعري الجمالي والاحتكام أثناء النظر في شعره وتقويمـــه إلـــى أصول تختلف عن تلك التي تعتمد في نقد الشعر – تكشف عن حرج الباحـــث الـــذي أعيته الحيل في الانتصار لشعر الزهاوي فلم يجد من سبيل يؤكد بها وقوعـــه في دائرة الشعر وانتسابه إلى حضيرة الأدب إلا الدعوة إلى تغيير قواعد نقد الشـــعر وهي التي استمدت من أشعار الشعراء واستلهمت منها . يقول أدونيس مجيبا عـــن سؤال " كيف نقوم شعر الزهاوي ؟ "[28] " إنه لا يجوز أن يقوم قياسا على أصول البـــيان "[29] مـــا دام الزهاوي يحرص " على نقل الحقائق في شعره كما هي بسيطة واضـــحة مركـــزا على جلاء حقيقتها بلغة التبيين "[30] وهي نفس الدعوة التي ختم بها الباحـــث دراســـته التي قدم بها ما انتقاه للزهاوي من قصائد رآها ممثلة لشعره قائلا " ومن هنا لكي نعرف مكانته ودوره لا يصح أن ننظر إلى شعره وشعر الذين يسيرون فـــي هذا الاتجاه بمعيارية الصنيع الشعري – الجمالي " [31]فهذا الوجه من التجديد الذي ســـعى إلـــيه الزهاوي في شعره متى نظرنا فيه بعين تتحرى الصدق وتطلب النصفة وجدنـــا أن الشـــعر لم يستفد منه كثيرا ولا تطور بفضله قليلا وإنما هو تجديد اقتصر صـــاحبه فيه على الفكرة فلم يطل العبارة بل إنه أفقر العبارة إغناء للفكرة ورغبة في عرضـــها وإيضاحها مما أساء إلى صفة الشاعر وجنى على جوهر الشعر ودفع فريقا من الدارسين إلى الاعتراض على إسناد صفة الشاعر إلى الزهاوي والاستعاضة عنها بصـــفة الناظم مخرجين شعره من دائرة الشعر ملحقين إياه بدائرة النظم وهذا ما عبر

---

[25]" كلمة عن الأستاذ الزهاوي " ضمن المرجع السابق ، ص. 217 .

[26]المرجع السابق ، ص. **217** .

[27]" جميل صدقي الزهاوي " ضمن كتاب الرشودي المذكور ، ص. **251** .

[28]ديوان النهضة : جميل صدقي الزهاوي ، دار العلم للملايين لبنان **1983** ،ص.13.

[29]المرجع السابق ، ص. **13** .

[30]المرجع السابق ، ص. **6** .

[31]المرجع السابق ، ص. **13**

عـــنه أنور الجندي قائلا : " وقد وصفه بعض النقاد بأنه ناظم وليس شاعرا وقال عنه الـــناقد يوســـف جورج إنه ليس شاعرا إذ أن الشاعر يعتمد على العاطفة والخيال قبل العقـــل والزهاوي كان لا يبالي بالعواطف والخيال أبدا ومن يقرأ شعره لا يرى فيه إلا حقـــائق تعتمد على العقل قبل أي شيء آخر ولم يستطع أن يكسبها بوشاح من الروح الشـــاعرة وعلى الرغم من محاولاته العديدة فهو ناظم وليس شاعرا "[32] وعلى ظاهرة خلـــط الزهاوي بين الفلسفة والشعر اعترض أحمد حسن الزيات ورأى أنها تسيء إلى الشـــعر إســـاءتها إلى الفلسفة " فيذهب الشاعر ولا يبقى الفيلسوف " وهي فكرة تبناها شـــوقي ضيف في دراسته الموسومة بـــ" العلم في شعر الزهاوي " مؤصلا إياها في الشـــعر القديم متعمقا فيها مستوفيا جوانبها مستشهدا عليها بنبذ من شعر الزهاوي مما جعـــل اعتراضـــه علـــيها في شعره مقنعا فشوقي ضيف لا ينكر أن ظاهرة " الشعر التعليمـــي " تجد أصولها وطلائعها في الشعر القديم سواء لدى الغربيين كما هو الأمر عند الشاعر اليوناني هزيود في قصيدته " الأعمال والأيام " أو عند العرب الذين توسل بعـــض شـــعرائهم بهـــذا الضرب من الشعر " وعبروا به في مجالات علمية وثقافية مخـــتلفة "[33] فقـــد وجد عدد من معلمي العربية في الشعر التعليمي أداة تصلح لتقريب قواعـــد اللغة وأسرارها من أذهان المبتدئين فكانت تلك الأراجيز التي يبلغ عدد أبياتها الألـــف كألفية ابن مالك . وبعد أن أصل شوقي ضيف هذه الظاهرة في القديم وتلطف فـــي إشـــعارنا بأن الزهاوي لم يكن بدعا عندما عرض أفكاره و" فلسفته " في شعره أضاف إلى بيانه ذاك إيضاحا قدمه في شكل استدراك مفاده أن القدامى لم يدرجوا تلك الأراجيز والقصائد التي تتكفل بنقل المعارف وحمل العلوم في باب الشعر " فشعراؤنا تنبهوا إليه منذ القديم وعبروا به في مجالات علمية وثقافية مختلفة ولكنهم لم يعدوه من الشـــعر العـــام وإنما عدوه متونا للحفظ والتسميع "[34] فتبين أن اعتراض شوقي ضيف على الزهاوي لا يتصل بكتابته هذا اللون من الشعر وإنما اعتراضه يدور على اعتبار هذا " الشعر " من الشعر لا لأن العلم حال فيه – فشوقي ضيف على خلاف الزيات لا يمانع في أن يداخل العلم الشعر – وإنما لأن حضور العلم في تلك القصائد قضى على الشـــعرية فـــيها وقام مقصيا للشعر بديلا عنه " فالزهاوي لا يلام لأنه أدخل العلم في الشعر وإنما يلام لأنه لم يمزج مزجا له قيمة بين العالمين عالم العقل وعالم الشعور فقـــد بقـــي العلم عنده كما هو ولم يضف إليه من أحاسيسه ومشاعره إلا نادرا جدا "[35] واكتفى –وهنا علة الضعف في شعره التعليمي– بإحضار المعارف مادة خاما فكانت قصـــائده تحكـــي العلـــم وتـــنقله دون أن تصبغه بصباغ النفس وتلونه بمشاعر الذات

---

[32]" جميل صدقي الزهاوي بمناسبة ذكراه الأولى " ضمن المرجع السابق ، ص.212 .

[33]شوقي ضيف : "دراسات في الشعر العربي المعاصر " دار المعارف ، مصر ، ط.7 ، ص. 73 .

[34]المرجع السابق ، ص. 73 .

[35]المرجع السابق ، ص. 86 .

وتتمـــثله بالعاطفـــة والوجدان لا بوعي العلام و أصحاب الأذهان " فالعلم أو المعرفة العلمـــية تظهر في مرآة شعره كما هي أو تكاد ولا تتحول مطلقا إلى صورة فكرية أو شـــعرية فالشـــاعر مشـــغول عن نفسه وعن عالمه الإنساني بما يقول في الأفلاك وما يجـــري فـــي بعضـــها من حياة ثم ما يربطها من قوانين الجذب "[36] فالذي جعل هذه القصـــائد تنأى عن جوهر الشعر أبعادا ومسافات إخفاق الزهاوي في المزج بين العلم والشـــعر مزجا لطيفا يخفت من حدة التوتر بينهما فضلا عن أن كثيرا من العلوم التي ضمنها في شعره لا تصمد كثيرا أمام الحقائق .

لقد تحول الشعر في كثير من شعر الزهاوي إلى خطاب تقريري جاف يعرى مـــن كل عاطفة وحماس مما جرأ سلامة موسى على نفي صفة الشاعر عن الزهاوي نفيا مطلقا حيث قال " ولكن الزهاوي لم يكن قط شاعرا فإن الشعر يقتضي الحماسة "[37] وانتهى إلى القول بعد أن أورد قصيدة " تولد الإنسان " : " وواضح من هذه الأبيات أنـــه يـــريد أن ينظم نظرية التطور شعرا وكان يمكنه أن يتعمق في الخيال ويصف ويتبســـط ولكـــن الزهاوي كان يؤلف الشعر بمزاج العالم المادي ."[38] وغير خاف أن انشـــغال الـــزهاوي المفـــرط بالفكرة واتخاذه الشعر أداة لنشر الرأي ونصرة المذهب وتبســـيط المعارف وإذاعتها بين الجمهور هو الذي يقف وراء اتسام شعره بجملة من المظاهـــر أسهمت في تهافته وضعفه ووقوعه أحيانا كثيرة بعيدا عن دائرة الشعر من ذلـــك الإعـــادة المملـــة والتبســـيط المخل وانعدام التخييل وهي ظواهر يعترف بها الزهاوي ولا يدفعها عن شعره وإنما هو يلتمس لها الأعذار والمسوغات ليخرجها مما يمكن أن يدخل في باب الضرائر والعيوب فهو يذكر في مقدمة الديوان الموسومة بـــ" نزعتي في الشعر " مفسرا للقارئ العلة في تعاود المعاني في شعره من نص لآخر:

" وقـــد يـــتكرر عندي المعنى الواحد في بيتين أو أكثر ذلك لقلة حفظي ما قلته أو حبا بالمعـــنى وحرصـــا علـــى طلب الإجادة في نظمه ولا ضير في ذلك على الأدب فإن الروض ينبت زهرا مختلف اللون والرائحة وزهرا متشابها . "[39] فإذا به يقلب الحجة لفائدتـــه ويصير العيب حسنا . وقد وقف سامي الكيالي على الظاهرة المذكورة إلا أن تبريره إياها جاء مختلفا عن تبرير الزهاوي فإعادة المعاني بألفاظها ترجع فيما ترجع حسب هذا الباحث إلى جدة الأفكار التي يبسطها الزهاوي في شعره مما يحوجه إلى اســـتعادتها مـــن قصيدة لأخرى وتقليبها على وجوه شتى " تقليب الحطب على النار " حتى تبلغ الآذان وتعيها الأذهان . يقول الكيالي في هذا السياق " وقد يكرر الفكرة مرة ومرتين وقد تنتهي به إلى أكثر من عشر مرات وهذا عمل أصحاب الفكرات الجديدة

---

[36] المرجع السابق ، ص. 75 .

[37] "جميل صدقي الزهاوي " ضمن كتاب الرشودي المذكور ، ص. 323 .

[38] المرجع السابق ، ص. 328 .

[39] " نزعتي في الشعر " ، ص. 8 .

لا يزالون يبسطون آراءهم ويعيدونها بأساليب مختلفة حتى تأنس بفكراتهم الجماعات وتستبين خطأ السابق ."[40]

أما زهد الزهاوي في الاحتفال بصنعة الشعر وخلو شعره من التخييل فقد عزاهما أدونيس إلى ولعه بالحقيقة العلمية لا يرضى عنها بديل[41]ا وحرصه على استحضارها في شعره حتى أمسى مرتعا للعلم ومسرحا للأفكار فقد "كان النهوض شاغله الأساس وكان العلم في رأيه الطريقة الوحيدة لتحقيقه ولهذا حرص واعيا على أن يقدم في شعره أفكارا وينقل حقائق علمية . هذا الحرص الواعي أدى إلى تعرية شعره من الأخيلة والصور ومن الموسيقى وتشكلاتها النغمية فهذه كلها تكاد أن تكون غائبة عن شعره غيابا تاما "[42] وتلك سمة نبه الزهاوي قارئه إليها في مقدمة ديوانه وأبان له عن اعتماده إياها مبدأ من مبادئه في قول الشعر واختيارا شخصيا لم يدخر صاحبه في الالتزام به والمواظبة عليه فهو نزعة من نزعات شعره وميسم من مياسمه لا يجد حرجا في تبنيه وإعلام القارئ به ، يقول الزهاوي " وقد جردته ما استطعت من الصناعات اللفظية والخيالات الباطلة وحرصت على أن يكون منطبقا على الواقع خلوا من الإغراق ماشيا مع العصر ."[43] ولئن كان القارئ النبيه لهذا القول يبارك صنيع صاحبه عندما نزه شعره من الخيالات الباطلة – رغم تحفظنا من هذه التسمية لما يكتنفها من أحكام القيمة – فإننا لا نفهم – لإيثار الزهاوي الصمت في هذه المسألة – الأسباب التي جعلت نصيب " الخيال الحق " في شعره ضئيلا فضلا عما يخفيه حرص الزهاوي على أن يأتي شعره مطابقا للواقع من فهم للشعر مغلوط لعل الباعث عليه ما أصاب الشعر العربي في " عصور الانحطاط " من فقر ووهن جعلاه يتحول على أيدي كثير من الشعراء إلى مجرد صناعة لفظية وأشكال متكلفة فيغدو فهم الزهاوي للشعر على النحو الذي بينا وحرصه على مقولة الصدق والمطابقة بمثابة رد الفعل لا ثمرة تفكير معمق وتدبر طويل في ماهية الشعر وبنيته .[44]

أما اعتماده البساطة في العبارة الشعرية مبدأ أثيرا لديه جاء نتيجة رفض للصنعة والتخييل فقد مر بنا في غير هذا الموضع ما يؤكد أن الزهاوي كان حريصا على الوفاء لهذا المبدإ بل إنه يقدر أن النجاح قد حالفه فيه مما دفع به في أكثر من

---

[40]"جميل صدقي الزهاوي " ضمن كتاب الرشودي المذكور ، ص. **251** .

[41]يقول أدونيس في هذا السياق : " ما الحقيقة التي عني الزهاوي بالتعبير عنها ؟ إنها العلم منهجا وكشفا وينطق شعره كله ، تصريحا تارة وتلميحا تارة بأنه لا يهوى إلا وجه العلم " المرجع المذكور ، ص.**5** .

[42]المرجع السابق ، ص. **12** .

[43]" نزعتي في الشعر "، ص. **3** .

[44]لا شك أن ثمة أسبابا أخرى تقف وراء فهم الزهاوي للشعر هذا الفهم لعل أبرزها انغماس الشعر على عهد الزهاوي في قضايا الساعة وهموم العصر مما يمنعه من الالتفات إلى نفسه والاحتفال بفعل الكتابة والضرب بعيدا في فيافي الإبداع ومجاهل اللغة .

موضع إلى التذكير بأنه رائد التبسيط في الشعر وأول الذين جهروا بهذه الدعوة[45] إلا أن مبدأ البساطة الذي رفعه الزهاوي ورغبته في إدخال المرونة على العبارة الشعرية بدعوى أن ذلك كفيل بأن يقرب الشعر من الجمهور فلا تستوحشه نفس و لا تستهجنه ذائقة جر في كثير من الأحيان إلى سقوط العبارة في الابتذال والإسفاف مما أدخل على أشعاره تفاوتا كبيرا " فقد شاب دواوينه بكثرة ما جمع فيها من المسف والضعيف المبتذل مما حمل بعضهم على وصف شعره بسقط المتاع . "[46] وهذا ما حمل أنيس المقدسي – بعد أن قدم ما اعتبره من جيد شعر الزهاوي –إلى القول منبها قارئه إلى ضرورة الوعي بذلك التفاوت : " وسنرى في شعر الزهاوي من اختلاط الجيد بالمبتذل والرفيع بالمسف ما لا نراه في ديوان آخر من دواوين كبار الشعراء في هذا الجيل الذي ندرسه "[47] ويبدو أن سعي الزهاوي إلى إطالة قصائده– جريا على نهج الفحول من الشعراء القدامى وظنا منه أن طول النفس شهادة على علو الكعب وطول الباع والاقتدار والبراعة في قول الشعر –كان سببا من جملة أسباب أخرى جره إلى أن يحشر في شعره الضعيف المتهالك من الأبيات والمسف المتهافت من الألفاظ مما جعل منه لدى أكثر من دارس شاعرا لا يتعهد نصوصه بالتجويد والتحكيك ولا يتنخل أبيات شعره فيقتصر منها على الأجاود ولا ينشر منها إلا ما رشحه الاختيار المبرر والقراءة المتأنية فهم الزهاوي الإطالة في القول وشاغله الكم لا الكيف وحتى المحاولة التي قام فيها بتهذيب عدد من نصوصه وتشذيب كثير من قصائده والتي تمخض عنها نشره ديوان " اللباب " كانت في الأصل استجابة لطلب صديقه كمال إبراهيم ولم تنشأ عن اختيار شخصي ومبادرة ذاتية ولم تكن نتيجة شعور منه بضرورة الاختيار والاقتصار على الجيد واستبعاد الرديء .[48] ولا يختلف أمر ديوان " اللباب " عن أمر ديوانه الضخم الذي ضم مجمل أشعاره فرغم حرص الزهاوي على إثبات " وهو المختار مما قاله " في بداية كل قسم من أقسام الديوان الخمسة عشر فإنه لم يكن حازما في اختياره مستعدا لأن يحذف منه ما لم يكن أهلا للنشر ولو كان ذلك كذلك لتخفف الديوان من قصائد كثيرة ولخرج إلى الناس في حجم أصغر مما هو عليه . ومما يمكن أن نستدل به على ما أفضى إليه مطلب البساطة في الشعر من لدن الزهاوي من ضعف وإسفاف و بقي مثبتا في الديوان وكان حقه أن يحذف قول الزهاوي :

تعلموا تعلموا *** من الشقاء تسلموا
فإنما الذين *** تعلموا تنعموا

---

[45] انظر البيتين السابقين اللذين أوردناهما في بداية هذا العمل وفيهما جهر وإعلان بالريادة في تبسيط اللغة الشعرية .
[46] أنيس المقدسي : " أعلام الجيل الأول " ، ص.**248** .
[47] المرجع السابق ، ص. **242** .
[48] انظر دراسة الكيالي : " ذكريات مع الزهاوي " ضمن كتاب الرشودي المذكور، ص. **371** ، وانظر ص ص . **169 – 171** ففيهما تعريف بهذا الديوان ونقول عما ذكره الزهاوي في مقدمته التي صدره بها .

وقولـــه واصـــفا الممثلة المصرية فاطمة منيرة وصفا لم يرق القول فيه إلى مستوى الفن:

ما شاهدت عيني ممثلة كفاطمة الشـــــهيرة
أبدت جلال الفن حتى في مواقفه الخـــطيرة
للفن ثم الفن ثم الفن فاطمة القـــديـــــــرة

ولعـــل هـــذه الأبيات – التي نكتفي بإيرادها دون التعليق عليها فعورتها بادية وضعفها غير خاف – تفصح عن المهاوي التي سقط فيها الزهاوي عندما لوح بشعار البســـاطة واتخذه قرين الضعف والابتذال إفصاحها عن المسافة التي تفصل بين النص المعلـــن الذي رأينا فيه الزهاوي يدعي السبق والريادة والتجديد والنص المنجز الذي جـــاء يكـــرس الضـــعف ويكشـــف عن بطلان الدعوة وغلبة العزم والوعد والنية في الإحـــداث على الفعل والخلق وهذا ما انتهى إليه المقدسي قائلا بعدما وقف عند اعتماد الـــزهاوي البساطة مذهبا في الشعر : " وقد أحسن الذين حرروا أنفسهم وأقلامهم من هذه الشوائب وأخذوا يتقربون من أذهان الجماهير باعتماد السهل المألوف من التعبير ولكـــن الـــتحرر مـــن الـــتكلف والتزويق والإسراف وإهمال التسامي في التعبير عن الخواطر والأفكار شيء آخر. " [49]

لقـــد دعونـــا فـــي بداية عملنا – الذي رمينا من ورائه إلى التحقيق في مسألة الـــتجديد فـــي شعر الزهاوي – إلى ضرورة العودة إلى شعره واعتماده بدرجة أولى والاســـتئناس بما تركه من كتابات نثرية تدور على الشعر وأرفقنا هذه الدعوة بأخرى ناديـــنا فيها بضرورة الوعي بلونين من الخطاب في شعر الزهاوي أطلقنا على الأول مـــنهما الـــنص المعلـــن وسمينا الثاني النص المنجز فهدانا ذلك التفريق بين مستويي الخطاب إلى أن لاحظنا أن أشكال النص المعلن متنوعة وطرائق حضوره مختلفة فقد تـــبدو ظاهرة سافرة عندما ينسب الزهاوي إلى نفسه الريادة في تجديد الشعر ويدعي الســـبق فـــي تطويره وقد تخفى وتتقنع حينما يتهجم في شعره على القديم أو يبالغ في الحديث عن ضيعة الشعراء ونكبة الشعر على عهده بالعراق أو يسرف في الثناء على شعره في شعره أو يلمح إلى فشل غيره من الشعراء في صناعة القريض ونبهنا أيضا إلى أن " إعلانات " الزهاوي مثلما تحضر في أشعاره تطفح بها أيضا مقدماته النثرية لأشـــعاره ولكنـــنا لم نكتف في حكمنا على تجربة هذا الشاعر بالنص المعلن ولم نأخذ بمقولـــة الأعمـــال بنياتها بل دعونا إلى ضرورة فحص المنجز من تلك الدعاوى في شـــعره والاعتـــبار بالأعمال وتقديم ما تحقق عما تعلق وبقي شعارا مرفوعا وطموحا مشروعا[50] فأوقفنا ذلك كله على مفارقة تفصل بين النصين وتبين لنا – بعد العودة إلى

---

[49] " أعلام الجيل الأول " ، ص.**243** .

[50] في التفريق بين " النص الشعري " و " المشروع الشعري " انظر دراسة محمد الهادي الطرابلسي " حدود صناعة الشعر " ضمن كتاب : صناعة المعنى وتأويل النص ، ص ص. **173 – 175** .

شـــعره وتقليب النظر فيه – أن الزهاوي شاعر توفرت لديه الرغبة فى التجديد والنية فـــى الاستدراك على القديم وتخليص الشعر العربى مما تردى فيه وآل إليه إلا أن تلك الرغبة بقيت شعارا يلوح به ولم تتحول إلى إنجاز فعلى وحتى ما تحقق فى شعره مما عـــد تجديـــدا كما هو الأمر فى تلك القصائد التى بسط فيها العبارة وأذاع فيها أفكارا جديـــدة وفلسفات حديثة وانتصب مناديا بضرورة تحرير المرأة لم يكن من قبيل الثورة الجمالـــية ولـــم يفتح فى القول محجات جديدة وإنما هو من الثورة السياسية والصحوة الفكـــرية التـــى ترسخ فى الزهاوي جانب المفكر وتقتل فيه جانب الشاعر والفنان مما يلحـــق الضيم على شعره ويورثه ضعفا ويوقعه بعيدا عن دائرة الشعر الحق وهذا ما خلـــص إليه شوقى ضيف فى بحثه المذكور عندما نبه القارئ إلى ما انتهى إليه شعر الـــزهاوي فقـــد اســـتحال فـــى كثـــير من النصوص خطابا علميا تصب فيه الأفكار المعروضة فى وزن من أوزان النظم ظنا منه أنه " بما أحدث من ذلك كان يسعى إلى أن يعد فى الشعراء المجددين ولكن يبدو أنه حلق بعيدا عن آفاق الشعر ومملكته ."[51]

إن الـــتجديد فـــى الشعر – وهذا ما يمكن أن نخلص إليه – بقى عند الزهاوي وقفـــا علـــى الأفكـــار فغلبت على شعره طاقة الإخبار على طاقة الإيحاء واقتصرت الطـــرافة عنده على " جديد المقول لا على إجادة الشاعر فى القول "[52] وظل الشعر معـــه فـــى النصيب الأوفر من نصوصه استجابة لظروف عابرة لا إعرابا عن نفس شاعرة ومهجة حائرة وأداة تحرير وساحة نضال ومساحة إعلام لأن قائله ينشد من ورائه إصلاح شؤون الأمة ويقدم الوطن على القصيدة ومشاغل البلاد على فعل الكتابة ولا يـــرى فـــى الشعر صراعا مستميتا ضد قواعد اللغة المسطورة وحربا عوانا على مســـالك القول المألوفة وسعيا دؤوبا من أجل إغناء المعانى وإدرارها وسد ما فى اللغة مـــن عجـــز وقصـــور حتى تقوى على حمل المراد واستيعاب ما تفيض به الخواطر ويهجـــس بالنفوس ، كما أن مراجع الشعر ومصادر التصوير ظلت فى شعر الزهاوي مقصـــورة علـــى ما يجري فى الواقع وما يستكن فى النفس من جياد الأبيات وشوارد الأمـــثال ومحكم الآيات تستحضر استحضارا تنعدم فيه القدرة على التصرف ويغيب عـــنه الإحسان فى التوظيف مما جعل شعره فى قسم كبير منه صدى لواقعه مرددا وانعكاسا له حرفيا وصورة منه صادقة وكان فى قسم آخر نصا يحاكى القديم ويسترفده مـــادة خامـــا دون أن يسعى إلى تذويبه وصهره صهرا خلاقا تنطمس فيه الحدود أو هضمه هضما حسنا يخول له أن يصبح " من أصحاب الحق فيه "[53] ولعل هذه الأبيات التى يكتفى فيها الزهاوي بنظم آي القرآن والنسج دون تصرف على منواله تكفي لبيان ما نحن منه بسبيل :

يا أرض ماءك ابلعي *** ويا سماء أقـــلعي
ويا قوارع اهـــدئي *** ويا زوابع اهجعي

---

[51] دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ص. 77 .
[52] محمد الهادي الطرابلسي : " خصائص الأسلوب في الشوقيات "، منشورات الجامعة التونسية ،1981، ص. 516 .
[53] المرجع السابق ، ص. 319 .

ولـــم نقـــف في شعره على توظيف للرموز واستغلال للأساطير مصدرا من مصادر التصوير وأداة يعول عليها في التعبير كما سنقف على ذلك في نصوص حركة الشـــعر الحديث كما أن لغة الزهاوي بقيت في الغالب تقليدية تغرف من القديم وتنزع نزعا من سالف النصوص وراء ذلك نية في إبراز طول الباع وعميق المعرفة وواسع الدرايـــة بالعبارة الأبدة واللفظة البائدة وهذا ما عبر عنه إبراهيم السامرائي واقفا عند ملاحظة الظاهرة : " ومن خصائص لغة الزهاوي أنها لغة تقليدية تجد أصولها ومادتها في الأدب القديم "[54] ولم يكن حظ أغراض الشعر عنده من التجديد أوفر من حظ اللغة والتصـــاوير فهـــي أيضا تجري في ركاب القديم فتتخذ من مشهور الأغراض التقليدية إطـــارا للقول وقاعدة للإنشاء تتحكم في القصيدة وتحدد بنيتها وتكيف دلالاتها وتفرض علـــى الشـــاعر جملة من الاختيارات لا يجد للتخلص منها سبيلا فنحن نقف في شعر الزهاوي على قصائد مدح بها أعيانا[55] وأخرى رثى بها أعلاما[56] وثالثة أرسلها هجاء[57] ورابعـــة كانـــت غـــزلا[58] فحق عليه أن يتبع القسمة الأغراضية في وضع قصائده وترتيبها في الديوان فهي أقرب إلى شعره وأمس به رحما من تلك التي ارتضاها ولم يمتد التغيير أيضا إلى شكل القصيدة وعمودها فالبيت بقي في شعره مستقلا بذاته يكتمل المعـــنى فـــي الغالـــب باكتمال مبناه وقيام قافيته والطالع يرد في الكثير من الأحيان مصـــرعا والـــبحر واحدا والقافية – رغم الدعوة إلى إرسالها – غير متنوعة والمعنى مـــأخذه قريـــب[59] والصور المعول عليها في إخراجه بينة معلومة لا تكلف القارئ – لتحصيل معناها – عنتا ولا ترهقه من أمره عسرا .

---

[54] " اللغة وشعر الزهاوي " ضمن كتاب الرشودي المذكور ، ص. **436** .

[55] انظر القسم الموسوم من ديوانه بـ " فلق الصباح " فضلا عن تلك القصائد التي أرسلها في مدح الملك فيصل طمعا في تولي الوزارة والتي أخرجها من ديوانه وسماها " المطرودات " قائلا فيها :

قد مدحت الذين لم يستحقوا مدائحي
احسبوها على ضـرورتها من قبـانحي

[56] انظر القسم الموسوم من ديوانه بـ " الدموع الناطقة " الذي خصصه للرثاء .

[57] انظر على سبيل المثال قصيدته " السكوت جواب " وفيها يقول :

سكتنا حين ذمونا وعابوا — وإن سكوتنا عنهم جواب
وهل ضرر على قمر تسامى — إذا نبحت على القمر الكلاب
أرى ناسا لهم دون البرايا — وجوه حين تلقاها صـلاب
سطا نفر على اداب قوم — كذاك تعيش في الليل الذئـاب

[58] انظر القسم الموسوم من ديوانه بـ "الشهقات " .

[59] يقول أدونيس في شأن المعنى في شعر الزهاوي : " ومن هنا لا نجد في شعره احتمالا في المعاني يتيح للقارئ أن يختار منه الدلالة التي توافق نزعاته وتلك هي خاصية من خواص الشعر وإنما نجد شعره قائما على المعنى الواحد المحدد الواضح بحيث يبدو كأنه معنى عقلي منطقي " ، المرجع المذكور ، ص. **11** .